وقفة: مع الكِبْر

عجيبة هي طباع فئام من الناس، إذ تراهم يصابون بشيء من الغرور، ويدفعهم هذا الغرور إلى الترفع والتكبر على الآخرين.

فبعض الناس يصيبه الغرور لكثرة ماله، أو لشرف نسبه، أو ما يملكه من جاهٍ وسلطان.

وبعضهم يغتر بسعة علمه، واتساع مدركه، وما يحمله من ثقافة ومعرفة، ومنهم من تجده مغرورًا مترفعًا بسبب عبادته وتنفلّه.

تلكم الفئام من البشر يتكبرون على عباد الله تعالى، شعورًا منهم أنهم أفضل من الآخرين، وأنهم في درجة عليا، بينما الآخرون أدنى منزلة، وسبحان الله العظيم.

يقول الحق تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين،{وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾} [الأعراف: ١١ - ١٣].

فيا أسفاه على المغرورين المتكبرين، وهم بغرورهم يقلدون إبليسًا، ويقتدون به، والله المستعان.

أحبتي في الله، إن إعجاب المرء بنفسه مهلكة له دون غيره، فتجده مرهقًا لنفسه، يفكر بم يترفع؟ وكيف يكون أفضل من غيره ليتكبر عليهم؟ وهذا الشعور الباطني، قال الله تعالى عنه:{إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ} [غافر: ٥٦].

فالكبر يدفع بصاحبه إلى التكلف في القول والسلوك، فيرى نفسه كمن ينظر للناس عن بُعد، أو من ارتفاع شاهق، فيراهم صغارًا

فيستصغرهم، ويرى نفسه كبيرة فيتعاظم ويتكبر.

قال أحد الشعراء:

مثل المعجب في استكباره يحسب ::: مثل الواقف في رأس الجبل في الناس صغارًا وهو ::: أعين الناس صغير لم يزل

التكبر يا عبد الله محرّم، وخلق ذميم، وسلوك مشين، يعجل الله لصاحبه الإهانة والذل في الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**═، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، فقال صلى الله عليه وسلم :♂**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**═، رواه مسلم.

أليس من الجحود وكفران النعم التي تستوجب الشكر لله تعالى، أن يصاب الإنسان بالغرور والتكبر على الناس؟

لقد كان من هدي الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولنا من بعده، أن يكون ليّن الجانب، متواضع النفس، رحيمًا، فقال عز وجل:{ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾} [الشعراء: ٢١٥].

وحيث إن نبينا صلوات الله وسلامه عليه، هو أسوتنا، ومثلنا الأعلى، فينبغي لنا الترفق بمن حولنا، والتحبب إليهم، والتواضع لهم، لنجسد تعاليم الإسلام واقعًا عمليًا.

فاحذروا الكبر، واحذروا جميع مظاهره، فمن الكبر الترفع بالمال والولد والنسب، ومنه إعجاب المرء بنفسه، ومن الكبر الاختيال في المشي، وغير ذلك كثيرٌ كثير.

أضف إلى ذلك أن من مظاهر الغرور والتكبر المشين، ما أصبح يجري بين النساء من التباهي بالجمال، والتفاخر بالثياب، فانتشر

بذلك الازدراء، والاحتقار لبعضهنّ بعضًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فيا أيها الأخ الحبيب، ويا أيتها الأخت الفاضلة، إن التكبر والغرور يكسبان المقت، ويوغران الصدور، ويزرعان الكراهية والبغضاء بين الناس، ويؤديان بصاحبهما إلى النار، وصدق الله تعالى:{أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ } [الزمر: ٦٠].

بلى والله، في جهنم مثوًى، وأي مثوًى للمتكبرين، ولذا فيا أخي العزيز، لا للكبر، لا للغرور، لا للترفع، لا لبطر الحق، لا لغمط الناس، بل إخوة على سرر متقابلين بإذن الله رب العالمين.

فهيا ولنحذر من الكبر، فهو سبب يوجب النار، ويحرم من نظر الله العزيز الجبار، فالمتكبر محروم من نظر الله يوم القيامة، وفي الحديث: ﷺ **من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**ـــ، رواه الشيخان.

وقفة مع الكبر يا عبد الله، وقفة مع الكبر تجعلك تخشاه، وتحذرك من الوقوع فيه، وتدعوك إلى الابتعاد عن الكبر والمتكبرين.

فمن نظر بعين الإنصاف إلى كيفية نشأته، ومعاده، وحسابه، وعرف أن أصله نطفة، وآخره جيفة، وبينهما يحمل العذرة، فقد حمى نفسه من الفخر، ودفع عنها الكبر، وكان من الفائزين في الدنيا والآخرة.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

* * *